تلازم الفكر والعمل في سيرة الإمام علي بن أبي طالب (ع)

بقلم: حسن الزين

كان السبب في صرف الوليد بن عقبة عن الكوفة وولاية سعيد بن العاص في عهد الخليفة عثمان بن عفان ، أنّ الوليد كان يشرب مع ندمائه ومغنيه من أول الليل إلى الصباح ؛ فلما آذنه المؤذنون بالصلاة خرج في غلائله ، فتقدم إلى المحراب في صلاة الصبح فصلى بهم أربعاً وقال : أتريدون أن أزيدكم . وقيل أنه قال في سجوده وقد أطال : اشرب واسقني . فقال له بعض من كان خلفه في الصف الأول : ما تزيد ولا زادك الله من الخير .

وفي ذلك يقول الحطيئة :

شهد الحطيئة يوم يلقى ربه ... أن الوليد أحق بالعذر
نادى وقد تمت صلاتهم ... أأزيدكم ! ثملاً وما يدري
ليزيدهم أخرى ولو قبلوا ... لقرنت بين الشفع والوتر
حبسوا عنانك في الصلاة ولو ... خلوا عنانك لم تزل تجري[1]

من هذه الواقعة وكثير مما يشابهها نستطيع أن نتصور ما آلت إليه الأوضاع الدينية في الوقت الذي دعي فيه الامام علي بن أبي طالب إلى تسلم زمام الحكم والامامة . ونستطيع أن نتصور أيضاً ردّات فعله على هذه التصرفات التي تكل امامة الناس في الصلاة إلى أمثال الوليد بن عقبة وهم كثر في تاريخ العهد الأموي .

(١) المسعودي : مروج الذهب جـ ٢ ، ص ٣٤٤ ، وما بعدها . دار الأندلس ١٩٦٥ بيروت .

ولكن الأمور كانت تعدّت كل هذا إلى الاعتداء على الحقوق والتصرّف بمال الله (المال العام) نهباً وتجميعاً خلافاً لأحكام القرآن الكريم وسنة الرسول . كل ذلك عن طريق ولاة لم يخافوا الله في حق اليتيم والمسكين وابن السبيل فكان قدر علي (ع) أن يواجه كل هذه الأمور بتحمل مسؤولية الردع والاصلاح ومن لها غير شجاعته وفضيلته . في أيّام عثمان اقتنى جماعة من الصحابة الضياع والدور ؛ منهم الزبير بن العوام بنى داره بالبصرة ، وهي المعروفة في هذا الوقت ـ سنة ٣٣٦ هـ ـ ينزلها التجار وأرباب الأموال وابتنى أيضاً دوراً بمصر والكوفة والإسكندرية ، وبلغ مال الزبير بعد وفاته خمسين ألف دينار ، وخلّف الزبير ألف فرس وألف عبد وأَمَة . وكذلك طلحة بن عبيد الله التيمي ابتنى داره المشهورة به في الكوفة وكانت غلته من العراق في كل يوم ألف دينار وقيل أكثر من ذلك . وكذلك عبد الرحمن بن عوف ابتنى داره ووسعها وكان على مربطه مائة فرس وله ألف بعير وعشرة آلاف شاة من الغنم . وابتنى سعد بن أبي وقاص داره بالعقيق فرفع سمكها ووسع فضاءها وجعل أعلاها شرفات .

وقد ذكر سعيد بن المسيب أن زيد بن ثابت حين مات خَلّف من الذهب والفضة ما كان يكسر بالفؤوس غير ما خلّف من الأموال والضياع بقيمة مائة ألف دينار .

ومات يعلى بن منيه وخلّف خمسمائة ألف دينار وديوناً على الناس وعقارات وغير ذلك من التركة ما قيمته ثلاثمائة ألف دينار وهذا باب يتسّع ذكره ويكثر وصفه ، والقول للمسعودي ـ فيمن تملك من الأموال في أيامه[1] .

فإذا ما علمنا أنّ كل هؤلاء كانوا من ذوي النفوذ الكبير في الدولة في عهد الخليفة الراشدي الثالث ، يشغلون كبرى المناصب ويتصرفون بأموال الدولة والناس ، أمكننا تكوين فكرة بسيطة عن الظروف السياسية والإدارية والإجتماعية التي واجهت الامام علي بن أبي طالب عليه السلام عند تسلمه الحكم ؛ وادركنا مرارة الحرب الاجتماعية القاسية التي كان على الإمام (ع) أن يخوضها إلى جانب الحروب الميدانية الأخرى التي كانت امتداداً منطقياً لدرجة النضال الاجتماعي الديني الذي قدّر للإمام أن يخوضه بدافع حتمي من طبيعته وخصاله وفكره السامي القويم .

وسط هذه الظروف بالذات تسلّم الحكم الرجل صاحب القول المأثور : « إنَّ الله تعالى فرض في أموال الاغنياء أقوات الفقراء ، فما جاع فقير إلا بما متع به غني والله تعالى سائلهم عن ذلك »[2] .

---

(١) نفس المصدر ص ٣٣٣ .

(٢) نهج البلاغة ص ٦٣٢ . ط . دار الأندلس بيروت ١٩٦٣ .

فهل كان باستطاعة الإمام (ع) أن يتجاوز ما يقول ويعتقد ليحافظ على مودة قوم تجاوزوا كل القيم الإسلامية إلى نعيم الدنيا ولذائذ الترف المبني على التهام حقوق مختلف الطبقات التي أقرها القرآن الكريم والرسول الأمين ؟

وعلي (ع) يروي عن الرسول (ص) الحديث التالي : « إن الله فرض على أغنياء المسلمين بقدر الذي يسع فقراءهم ولن يجهد الفقراء إذا جاعوا أو عروا إلا بما يصنع اغنياؤهم ألا وإنّ الله يحاسبهم حساباً شديداً ويعذّبهم عذاباً أليماً »[1] . وعلى ضوء هذا الكلام يمكن تفسير الكثير الكثير من أعمال الإمام (ع) ومبادراته ، وإلقاء الأضواء على الحكم المثالي الذي أقامه عبر تمرسه بالخلافة وخلال كل تلك المدة التي كانت امتداداً لصراع الإمام ضد الشرك والانحراف والبغي والاثراء غير المشروع على حساب الدين والمثل والأخلاق .

فكان خصمه المجتمع الحاكم بكامله وقد انحرف عن تعاليم الرسول (ص) وانقاد إلى جاهلية جديدة لعب فيها المال والرفاه والترف دور الاصنام التي حطّم الإسلام نفوذها .

ولكن الأصنام الجديدة كانت تهدِّد الدعوة بأكثر من خطر بعد انقياد فريق من الصحابة إلى اعتمادها كأمر واقع أو الانسياق أحياناً وراء إغرائها وفتونها ؟ فما هو موقف الإمام من كل ذلك من الواقع الأليم ومن الاشخاص الكبار الذين قبلوا به أو انقادوا إليه ؟

ما هو الجواب على اسئلة المؤرِّخين التي لم تزل تطرح علامات استفهامها منذ ذلك التاريخ بدافع الحسرة والألم لعدم تحقق الأهداف وبدافع النقد المبني على ألاعيب السياسة ومبادىء الاحتيال والاغراء والنفاق أو السكوت على كل ذلك ابتغاء للهدف النبيل والغاية السليمة ؟

وهؤلاء يمكن تصنيفهم في العصر الحديث إلى فئتين ، إحداهما تناقش الفكر والعمل بروح العصر الذي عاشت فيه وكانت منبثقة من واقعه غير المستند إلاّ إلى ما أحاط به من تجارب ووقائع فرضها الأمر الواقع وانحراف الحكام ، أو الظلم والاستبداد والحقد والمراوغة . أما الفئة الأخرى التي كانت مأجورة في نقدها منطلقة من حقد دفين أو غاية غير سليمة أو عواطف ثائرة فهذه لا تعنينا في شيء لأنها بعيدة عن كل ما يفرض على المؤرِّخ من تجرّدٍ وموضوعيّة .

---

(١) د. يوسف القرضاوي : فقه الزكاة جـ ٢ ص ٩٨٠ ط. دار الارشاد بيروت وابن حزم في المحلى جـ ٦ ص ١٥٦ ـ ١٥٩ .

من هنا كان على الإمام (ع) أن يخوض خلال كل فترة حكمه حرب الدفاع عن القرآن وأحكامه ، والإسلام ومبادئه ، ضد انحراف أخذ يهدِّد الدين الجديد بكل مبادئه الروحيّة والاجتماعية والسياسية بالتراجع والإنكماش فالإنهيار ، إذا استمر هؤلاء الغارقون في بحر ملاذهم الدنيوية من الصحابة ومن المقلِّدين لهم المعتدين بشرعية ما يجري على يدهم أو بعدم مبالاتهم وعدم اعتراضهم . تتشتت الفرص وتتضاءل حظوظ النجاح أمام الإمام (ع) كلَّما مر الزمن وتسارعت الأيام وتكاثر المستفيدون من الأموال العامة (مال الله) التي اخذت تتسرّب إلى جيوب غير المستحقين وبيوتهم وأقاربهم وعيالهم دون السائل والمسكين وابن السبيل ! وأخذت كل هذه العوامل الخارجية التي تعتمل في المجتمع والداخلية التي تعتمل في النفوس ، تدفع بالبقية الصالحة من الصحابة إلى الانعزال والتقوقع والانصراف إلى العبادة الخالصة بعد أن رأوا هذه الموبقات تلتهم فضائل بعض المؤمنين التهاماً وتزوِّر الدور الاجتماعي الذي يفرضه الدين الجديد ليتحول هذا الدور رضىً بالواقع المرير وقبولاً بكل ما يجري من أكل للحقوق وتطاول على الدين . أما من حاول منهم مقاومة الباطل ومقارعة الانحراف فقد تعرَّض لاشد أنواع العقاب الجسدي والانعزال ، وهذا أبو ذر مثل صارخ يقارِبُه أو يَزيدُ عليه عمارُ بن ياسر الذي واجه الطغيان بجسده التسعيني ليلاقي الموت على يد الطغاة . . ويزورون حديث الرسول (صلعم) في قوله لعمار : يا عمار تقتلك الفئة الباغية[1] وكان الإمام (ع) يعي كلا الدورين ويتألّم لكليهما لأن انسحاب الصحابة الأبرار واعتكافهم يعيق دور الدين ويساعد على توسع قوى الشر والطغيان والبعد عن مبادىء الدين القويم ، حارب الإسلام الترف في أكثر من مجال ، سواء في ما ورد في القرآن الكريم أو في أحاديث الرسول (ص) ، والترف قضية نسبية لكنه بوجه عام مرحلة يلجأ فيها الاغنياء إلى تكديس الأموال والخلود إلى حياة الدعة والخمول ، مرحلة يفقد فيها الانسان صفته كخلية منتجة في المجتمع ويتحول إلى عنصر أناني مستهلك لا يرى في الكون ورسالة الانسان إلا الشهوة الجامحة والبطر والتمرغ في اللذائذ والمتع ﴿ إن الانسان ليطغى ، أن رآه استغنى ﴾ العلق ٦ ـ ٧ وثمة علاقة بين الثراء الفاحش وبين الطغيان .

وعلي (ع) كان يلمس ويراقب أطوار هذه المرحلة التي دخلها مجتمع البيروقراطية الإسلامية الدخيلة على الإسلام المخالفة في وجودها وتطورها لاقدس مبادئه التي كرسها كتاب الله وحديث الرسول ، فأموال من تحدثنا عنهم دليل صارخ وتعبير صادق عن هذه المرحلة . ولكن علي بن أبي طالب الإمام وعلي بن أبي طالب الرجل وعلي بن أبي طالب

(١) طه حسين : اسلاميات ، الفتنة الكبرى : (علي وبنوه) ص ٨٩٣ ط . دار الآداب بيروت ١٩٦٧ .

الصحابي الجليل كما عرفناه عبر هذه الصفات الثلاث ، لا يمكن أن يسكت عن هذا التحول الذي أصاب المجتمع الإسلامي الذي عاش تطوره في حياة الرسول الأعظم مرحلة مرحلة وعاش بناءه لبنة لبنة .

كان هذا الفكر الاقتصادي يستمد جذوره وأسسه من القرآن الكريم ومن حديث الرسول (ص) . وكان المبدأ الذي سار عليه كبار الصحابة ممن لم تغرُّهم الدنيا ولم يثنهم الإرهاب أو الاستبداد عن الجهر لهذا المبدأ وبكل المبادىء السامية التي أخذوا عن رسول الله (ص) . فهذا أبو ذر يتعرض لمختلف أنواع الارهاب دون أن يتزعزع إيمانه وشجاعته . يلخص المبدأ بصورته الشجاعة والمأساوية في آن فيقول : « عجبت لمن لا يجد قوت يومه كيف لا يخرج على الناس شاهراً سيفه »[1] ولسنا في وارد التوسّع في شرح مضامين هذه الأحاديث نظراً لضيق المقال والمقام ، ولكن من المناسب القول أنه كان على علي (ع) أن يخالف كل ذلك ، إذا أراد إرضاء تلك الطبقة المترفة الكبيرة التي تكوّنت بعد وفاة الرسول الأعظم وانصراف حكام المناطق والأقاليم إلى تكديس الذهب والفضة والانغماس في لذائذ الترف والفساد . وكان الإمام (ع) يعلم حق العلم ما سيواجهه من متاعب وصعاب إذا وقف بالمرصاد في وجه هذا الفساد الذي استشرى فصار عبئاً على بيت المال وعبئاً أو خطراً على المبادىء التي أرسى أسسها رسول الله (ص) . فهل يتجنب هذه المتاعب ويعالجها بحذر وتؤدة لكي يتجنب نتائج الصراع المباشر والمجابهة المنهكة ؟

هذا هو السؤال الذي يطرحه الكثير من المؤرخين القدامى والجدد ناسبين للإمام صفات يحاكمون على أساسها أخطاء يتوهمونها على ضوء مفاهيم سياسية واجتماعية تكونت عبر جو يعبق بالانتهازية والنفاق أحيانا ، وبالمراوغة وانتهاز فرص هي أقرب إلى الغدر احيانا أخرى . ويوزِّعون صفات الدهاء والحنكة وحظوظ الحكام منها على ضوء هذه الأجواء والفرضيات منطلقين أساسا من الخطأ في التصوّر مما يوصل حتما إلى خطأ في النتيجة .

إنّ الدهاء والحنكة والمراوغة والغاية التي تبرِّر الوسيلة لا تدخل في تحليل سيرة الأنبياء والأبرار الذين عاشوا في كنفهم وتغذّوا بأخلاقهم ورضعوا العلم والأخلاق عنهم في أصولها الالهية ومبادئها المثالية .

وإنّ الترف الذي أطلق كتاب الله ضده ما أطلق من آيات بينات لن يكتب له الظهور في ما بسطت خلافة علي (ع) عليه سلطانها المثالي غير المبالي إلا برضى الله ورسوله وقول

(١) فهمي هويدي : القرآن والسلطان ص ١٧٨ ط . بيروت ١٩٨٠ .

الحق ومحاربة الباطل . « إن الباطل كان زهوقا » . ولكنه كان معششاً في عقول وجيوب وبطون بعض ممن غشّتهم حياة الترف والجور فاندفعوا إليها مبتعدين عن كتاب الله وسنة رسوله .

كان عليه أن يهادن بعض الشيء أو بعض المنحرفين ليحصل على عظمة الملك وراحة البال والهدوء والاطمئنان ؛ وكان عليه السلام يعلم حق العلم ما سيجره عليه محاربته للفساد والترف داخل وخارج الحكم . لم يغب عن باله شيء ولم يفاجئه شيء ، ويخطىء من يظن أنّ دهاء معاوية وحنكته هي التي أوصلت الأمور إلى ما جرى . ولكن وازعا من دين وورع وسمو صفات ابتعد بالامام عن مقارعة النفاق بالنفاق والحيلة بالحيلة وهذا ما ظهر في الكثير من كلامه عليه السلام ، ودفع كاتبا كسيد قطب لأن يقول : « الذين يرون في معاوية دهاء وبراعة لا يرونهما في علي ويعزون إليهما غلبة معاوية في النهاية ، إنّما يخطئون تقدير الظروف ، كما يخطئون فهم علي وواجبه (ع) . لقد كان واجب علي الأوّل والأخير أن يرد للتقاليد الإسلامية قوتها وأن يرد إلى الدين روحه وأن يجلو الغاشية التي غشيت هذا الروح على أيدي بني أمية في كبرة عثمان . ولو جارى وسائل بني أمية في المعركة لبطلت مهمته الحقيقية ، ولما كان لظفره بالخلافة خالصة من قيمة في حياة هذا الدين . إنّ علياً إما أن يكون علياً أو فلتذهب الخلافة عنه ، بل فلتذهب حياته معها وهذا هو الفهم الصحيح الذي لم يعب عنه »[1] .

إذن كانت المبادىء الإسلامية أساساً فيما كان من سيرة علي بن أبي طالب في جميع مراحل حياته .

ويمكن اختصار هذه المراحل كلّها بأنّها تلازم كامل بين أفكار ومواقف الرجل في إخلاص تام لجميع مبادىء الإسلام .

فالفكر الذي يعبِّر عن المواقف والموقف الذي يعبِّر عن الفكر حقيقة بينة في تاريخ الإمام السياسي والعسكري والديني . والإنحراف أو السكوت ولو البسيط الذي تمليه الظروف مهما قست والأوضاع مهما تطاولت لم يعرفه الرجل الذي تصرف في العشرينات من عمره كما في الستينات باخلاص مهيب للدين الذي اعتنقه والنبي الذي أحب والمبادىء التي استخلص وطبق .

إن عظمة علي وعبقرية علي إذا كانتا تظهران في هذا الفكر الرفيع الذي يجلل جميع

---

(١) سيد قطب : العدالة الاجتماعية في الإسلام ص ٢٢١ ـ الطبعة السادسة دار الشروق بيروت ١٩٧٩ .

أقواله وخطبه وحكمه ، فإن هذه العظمة تكتمل وتقوى في هذا التوازن المستمر بين الفكر والعمل الذي جلل وغطى كل حياة الإمام (ع) منذ تفتح هذا الفكر على سمو الرسالة وأخلاق النبوة حتى اليوم الذي واجه فيه سيف الغدر يسلّه ابن ملجم بعد أن عجزت كل مكائد الخائفين عن صوت الحق الذي لازمه طيلة حياته . لقد كانت أعماله كلها تعبيراً صادقاً عن فكره ومبادئه المنطلقة من عطاء كتاب الله وحديث رسوله (ص) .

ولقد كانت مأساة الإمام (ع) من مأساة العالم الإسلامي كلّه يومذاك في أنّه جاء إلى الحكم بعد أن كان الفقه كل الفقه والعلم كل العلم وحتى حديث الرسول قد حرِّف بعضه لمصلحة السياسة المحلية والأنانيات الصغيرة التي وجدت من كبر سن الخليفة الثالث وعجزه فرصة لها تسير في اتجاه مصالحها الخاصة وتكديس الأموال بعيداً عن ما رسم الدين الجديد وما حقّق وما أقام من قيم ومؤسسات . ولكن علياً (ع) كان يذكر حديث الرسول (ص) : « ويل للأغنياء من الفقراء يوم القيامة » . وحديث آخر يقول فيه : « ما آمن بي من بات شبعاناً وجاره جائع إلى جنبه وهو يعلم »[1] . وكان يعمل بما يوحيه له هذان الحديثان قبل تسلم الخلافة ، فكيف به بعدها ، وقد آلت إليه مقاليد أمور المسلمين فعلاً وقولاً . وفي طرف من مواقع خلافته كان معاوية بن أبي سفيان وكان علي كرّم الله وجهه يعرف عن ابيه وعنه الشيء الكثير سواء في عهد الرسول الأعظم بعد تسلمه ولاية بلاد الشام ، وكان قد اعترض على أعماله وقال فيه الشيء الكثير بصراحته المعهودة وشجاعته المعروفة ؛ فكان لا بد من عزله ولم يكن في تصور الناس أو في تصوره أي مجال لبقاء معاوية ولو للحظة في عهد علي عليه السلام ، وكان معاوية يعرف ذلك ، وليس لنا أن نطيل في هذه الأمور التي تعرض لها جميع المؤرخين ، المهم أنّ معاوية خرج على الخليفة وأن معركة صفين التي حدثت في العام ٣٧ للهجرة حطّمت الحواجز بين الباطل القائم المتخطي لأوامر الله ونواهيه في كتابه المبين وبين الحق الذي انتقض ليعيد إلى الخلافة والولاية حقيقتها الدينية والأخلاقية . لم يكن للإيمان الذي يواجه الباطل أن ينتظر الفرص المناسبة ويسكت عن كل ما يغاير الدين والأخلاق ويضرّ بمصالح المؤمنين ويتاجر بأموالهم . لا يمكن لهذا الإيمان أن يراود أو يهادن أو يساوم ولو للحظة واحدة وإلا فقد شرف الإسم وابتعد عن أبسط فرضياته ومضامينه . أليس في كل ذلك إذا حدث سكوت عن النفاق الذي أشار إليه كتاب الله أكثر من مرة وعن الترف الذي حذَّر منه في العديد من آياته ؟

والإيمان فكر يقترن بالعمل وليس أقرب إلى تصوّره من الحديث الشريف : « من رأى

(١) جمع الفوائد جـ١ ص ١٤٢ ، القرضاوي جـ٢ ص ١٠١٥ و١٠٢١ ـ الترغيب والترهيب جـ٣ ص ٣٥٨ .

منكم منكراً فليغيرّه بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإنْ لم يستطع فبقلبه »[1] . وليس في تاريخ الإسلام بعد الرسول (ص) من توازنه وتلازم فكره وعمله في هذا السبيل إلا علي بن أبي طالب عليه السلام .

من هنا كانت حرب صفين حرباً قال عنها كبار المفكرين أنّها كانت بين السلطان والقرآن . وأنّها أدت مع تسلم معاوية أمور الحكم إلى انتصار السلطان وتنحية القرآن عن شؤون الحكم لمدة طويلة[2] .

ومن سخريات التاريخ أن ترفع القرائين في هذه المعركة التي أريد لها أن تقضي على حكم القرآن الكريم وتزيح عن الطاحين في الملك والثراء فالترف وتقليد ملوك بيزنطية وفارس ، كل ما من شأنه أن يعيق وصولهم إلى ما يبتغون .

وإذا كانت سيرة علي بن أبي طالب حافلة بالاعمال والمآثر التي تنير بوضوح الصفات التي تتمتع بها شخصيته والمبادىء التي كانت تحكم سيرة حياته ، فإنّ في تاريخ خصومه الذين تصدّوا لحكمه ولأعماله ما يثبت هذه الصفات ويزيدها وضوحاً كما يزيد صورة الحق والباطل والجهة التي تتبنى كلا منهما وضوحاً وترسيخاً . والرجلان اللذان يمثلان الفريق الآخر في هذا المجال وتتصل نصرفاتهما بكل الأعمال والبطولات التي صدرت عن الإمام(ع) في فترات صراعاته الكبيرة التي غطت جميع مراحل حياته ، هما عمرو بن العاص ومعاوية بن أبي سفيان الذي أصبح خليفة بعد وفاة الإمام (ع) .

لن نكرر كل ما قام به الرجلان خلال حياتهما الحافلة بالحروب والمكائد والانحراف ولكننا سنكتفي بلمحات ربّما كانت أكثر تعبيراً بتوضيح المصير الأخير الذي واجه الرجلين أو تبيّن لهما بوضوح وكيف كان كلّ منهما يدرك ذلك عندما قرّر اللجوء إلى جميع الوسائل اختياراً لدنيا فانية وتخلياً عن مصير مجهول .

وحدّثنا التاريخ أنه لما حضرت عمرو بن العاص الوفاة بكى فقال له ابنه عبد الله بن عمرو : لم تبكي أجزعاً من الموت قال : لا والله ولكن مما بعده .

وعن عبد الله بن عمرو في تفصيل أوضح أن عمرو بن العاص قال حين حضرته الوفاة : « بني إذا مت فكفّني في ثلاثة أثواب أزرني في أحدهم ثم شقوا لي الأرض شقاً

---

(١) فهمي هويدي : القرآن والسلطان ص ١٥١ ط . بيروت ١٩٨٠ .

(٢) نفس المصدر ص ٢١٢ .

وسفوا علي التراب سفا فاني مخاصم وقال : اللهم انك أمرت بأمور ونهيت عن أمور فتركنا كثيراً مما أمرت به ووقعنا في كثير مما نهيت عنه اللهم لا إله إلا أنت فلم يزل يردد حتى قضى »[1] .

أما معاوية بن أبي سفيان فإنّه في كثير من فترات حياته كان يصغي إلى التعبير عن خلق علي (ع) واندفاعه في نصرة الحق اصغاء حامل عقدة الذنب في قلبه وعقله وقد يكرم المتحدث بذلك . وسموا ذلك حلماً ولكنه أقرب إلى فترات تأمل يعود فيها الإنسان إلى ضميره في خوف من اجرام تخطاه أو ذنوب تحملها ويحدثنا المؤرخون أن معاوية لم يتلق الموت مطمئنا اليه حين ألم به ، وإنما كان يتوجّع ويظهر الجزع ويكثر من ذكر حجر ومن ذكر اسرافه في أموال المسلمين[2] .

وإذا كان المنعطف الكبير والحدث البارز في خلافة علي (ع) حربه لمعاوية أو معركة صفين فيحسن إيراد ما قاله الحسن البصري فيما روى الطبري : أربع خصال كن في معاوية ، لو لم يكن فيه منهن إلا واحدة لكانت موبقة : « انتزاءوه على هذه الأمة بالسفهاء حتى ابتزها أمرها بغير مشورة منهم وفيهم بقايا الصحابة وذوو الفضيلة ، واستخلافه ابنه بعده سكيراً خميراً يلبس الحرير ويضرب الطنابير ، وادعاؤه زياداً وقد قال رسول الله (صلعم) : الولد للفراش وللعاهر الحجر ، وقتله حجر ، ويل له من حجر وأصحاب حجر ! ويل له من حجر واصحاب حجر » ويضيف طه حسين تعليقاً على هذه الرواية : (. . وإنما الذي يعنيني هو أن معاوية قد استحدث في المسلمين بدعة جديدة طالما انكروها من قبل وهي توريث الملك ، وكانت عاقبة هذه البدعة وبالأعلى المسلمين أي وبال)[3] .

أما ما يهمني من هذه الدراسة فهي البحث في احداث التاريخ عن الوقائع والأشخاص الذين تصدّى لهم علي (ع) ومن وراء كل ذلك عن القيم التي سعى إلى نصرتها أو مساندتها والافكار والمؤسسات التي سعى إلى محاربتها وأبعادها . فإنك في البحث عن شخصية وأعمال مناوئي الرجل والذين حاربهم وما يحملون من فكر وما ينفذون من عمل ، تستطيع النفاذ إلى الدوافع الكامنة في نفسه عليه السلام التي حالت بينه وبين السكوت عن الباطل وعن الظلم الناجم عنه .

إنّ علياً (ع) لم يكن يبغض شيئاً كما كان يبغض وضع درهم من بيت مال المسلمين في

(١) الكندي : كتاب الولاة والقضاة للكندي المصري ص ٣٣ ط . الآباء اليسوعيين . بيروت ١٩٠٨ .
(٢) طه حسين : اسلاميات، الفتنة الكبرى (علي وبنوه) ص ١٠٢١ ط . دار الآداب بيروت ١٩٦٧ .
(٣) نفس المصدر ص - ١٠١٤ .

غير وضعه أو إنفاقه في غير حقه ، كما كان يبغض المكر والكيد وكل ما يتصل بسبب من أسباب الجاهلية الأولى وقدر له أن يواجه أخصاماً يلجأون إلى مغريات كل هذا الذي يكره في سبيل محاربته ومحاربة المبادىء التي يدعم ويؤمن .

ولعل من المفيد هنا أن نعيد هذا الكلام لعباس محمود العقاد : « واتبع علي من اليوم الأول في خلافته أحسن السياسات التي كان له أن يتبعها فمن اللحظة الأولى اخذ في تجنيد قوى الخلافة الدينية التي لا قوة له بغيرها . . فعزل الولاة الذين استباحوا الغنائم المحظورة وتمرّغوا بالدنيا وطمعوا وأطمعوا رعاياهم في بيت مال المسلمين ، وأثاروا على عثمان سخط السواد وسخط الفقهاء والحفاظ الغيورين على فضائل الدين »[1] . وصورته المجملة لا تشق على مصور ولا على متفرس لانها صورة المجاهد في سبيل الله بيده وقلبه وعقله .

حسن الزين

الأرض لمن أحياها

تسأل السيدة م . ز المراجع الدينية في لبنان والخارج عن هذه المسألة : « إنني أملك مع عشرين وارثاً شرعياً قطعة أرض في مزرعة في الجنوب تسكنها ١٥ عائلة ، خمس عائلات منها من أصحاب الثروات الضخمة . ترملت باكراً واستنفدت كل شيء في سبيل تربية اولادي ولم يعد لي اي مورد سوى هذه الأرض لقضاء بقية حياتي . وإذ أقدم شيخ معمم رجل دين ومسؤول تنظيمي على تشييد بناء في هذه الأرض ، مع أن له بيتاً بجانب الجامع ، ثم دعا الناس لتشييد الأبنية على هذه الأرض لأن « الأرض لمن أحياها » حسب ادعائه فكرت السبحة واستدعى مؤخراً شقيقه وشيد بناء بجانبه عدا عن الآخرين الذين يشيدون البناء تلو البناء . . . .

فهل يجوز لرجل دين أن يقيم الشعارات الدينية في أرض مغتصبة وهي ملك لعائلات بأمس الحاجة لسد العوز اللاحق بها ؟

وهل « الأرض لمن أحياها » في أرض تعتبر ملكية خاصة ؟

هذا بعض ما ورد في السؤال ، وصرفنا النظر عن التفاصيل المؤلمة لئلا نمس شعور الآخرين . وسننشر فتوى المراجع الدينية في العدد القادم ، إن شاء الله .

(١) عباس محمود العقاد : عبقرية الإمام علي ص ٧٤ و١٥٨ ط . المكتبة العصرية ـ بيروت .